الصعلوك ملك الملوك، الكل في إزار ورداء، بعيد عن الرفاهية كحالة أول أحوال الآخرة، ولذلك سئل عليه الصلاة والسلام، ما يلبس المحرم ؟ فقال : لا تلبسوا القميص ولا السراويل ولا البرانص ولا ثوبا مسه زعفران أو رش ولا الخفين إلا أحدا لا يجد نعلين، فليلبس الخفين وليقطعهما حتى يكونا السفل من الكعبين، والشارع يريد من الاجتماع، ولذلك دعانا إلى الجماعة ثم دعانا إلى مجتمع أكبر منه ألا وهو الجمعة، ثم دعانا إلى أكبر منه وهو العيد، ثم دعانا إلى الحج، فهو أكبر وأشرف لمن خلص نيته وحج وعرف ما يراد بالحج والسلام.

4) المسامرة الأدبية في الاتزان والأخلاق المرضية[3] :

الحمد لله الواسع الرزاق، الآمر بالسعي للمعاد والمعاش بالعمل الصالح والارتزاق، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث ليتمم مكارم الأخلاق، وعلى إخوانه من الأنبياء وآله وصحبه وكل من إلى سجاياهم اشتياق.

أما بعد، فقد دعيت ها هنا لأذكر أبناء المدرسة فحصرت الكلام في الأخلاق والإرتزاق، فاعلموا يا أبناء المستقبل ورجال الغد أن الواحد هنا ينبغي أن يكون عالماً، عاقلا، عاملا، حازما، ومحترفاً، والعقل قسمان جبلي، يجبل عليه الإنسان، بحسب فطرته، ومكتسب بالتعلم والمخالطة مع أهله، فخالطوا أهله وتعلموا منهم.

اختر لنفسك الذي أطاع ... إن الطباع تسرق الطباع
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدي

العلم ! العلم ! العلم المعادي ! العلم المعاشي ! تعلموا بالنبي عليه السلام أمر بالتعلم. والله قال : ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ ولقد قال سيدنا عمر : (إنما العلم بالتعلم).

ثقفوا أنفسكم، هذبوها، رافقوا من هو أحسن منكم لتهتدوا بسَمْتِه ومعارفه، جانبوا الرذلاء، جانبوا الأسافل، لتحسنوا إلى أنفسكم وتحسنوا إليهم وتحسنوا إلى الهيأة الاجتماعية، أما إحسانكم إلى أنفسكم فهو ألا تتسرب إليكم أخلاقهم، وأما

(3) وهي المسامرة التي ألقاها بنادي المسامرات بفاس عشية يوم الخميس 28 جمادى الثانية عام 1339هـ موافق 10 مارس 1921م، وقد طبعت هذه المسامرة بالرباط في نفس العام في إحدى عشرة صفحة.

إحسانكم إليهم فإذا رأوكم تجانبونهم أقلعوا عما هم عليه، وأما إحسانكم إلى الهيئة الاجتماعية فهو تنقيص الشر منكم وارعواء ذوي الشر.

تعلموا، تعلموا، فقيمة كل امرئ ما يحسن، لا فضل إلا لأهل العلم :

الناس من جهة التمثيل أكفاء أبوهم آدم والأم حواء
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم على الهدى لمن استهدى ادلاء

قلت لا أفرق بين علم المعاش وعلم المعاد لأن الكل نافع، فالعلم الدنيوي به يصير كاسباً، به يصير زارعاً، به يصير صانعاً، به يصير تاجراً، وجماعها الكسب والاحتراف.

قال نبينا عليه السلام : «الكاسب حبيب الرحمن»، وقال : «إن الله يحب العبد الكاسب» وفي النساءي أن أنصاريا سأل رسول الله ﷺ، فأعطاه ثم سأله فأعطاه ثم سأله فقال : «هل في بيتك شيء» قال : «قدح وبق» (البق الثوب الغليظ).

قال الشاعر :

إن يكن ذا بق فهنا بقي مقيظ هصيف مشتي

قال سيدنا عليه السلام : «اذهب وأت بهما»، فأتى بهما فباعهما عليه السلام بدرهمين، واشترى له بدرهم طعاما وبدرهم فاساً، وقال : «غيب عني وجهك عشرة أيام، احطب وبع» ففعل فلم يزل حتى أثرى.

انظر إلى هذا المعلم الأكبر، انظر إلى هذا المربي الأنور، فقد علمه الإقتصاد والاحتراف اللائق به، فكفى عياله واخرجه للاحتطاب من النزر اليسير الذي كان عنده.

بعلم المعاش تكون اليد عليا، قال عليه السلام : «اليد العليا خير من اليد السفلى»، وقال عليه السلام : «اليد المُعطية العليا، واليد السائلة السفلى».

في البخاري أن حكيم بن حزام قال : (سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فقال : «يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس، بورك فيه، ومن أخذه بغير ذلك، لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى، ولأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب فيبيع، خير له من

أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه») قال حكيم : (فقلت والله لا أرزأ أحدا بعدك يارسول الله)، فكان أبو بكر يعرض عليه عطاءه فيأبى أن يأخذه، فيقول : (يا معشر المسلمين أشهدكم على حكيم أعرض عليه عطاء فيأبى أن يأخذ).

وفي النسائي أن حكيماً كان يسقط له سوطه ينزل ويأخذه، وإذا ناوله مناول أعطاه شيئاً في مقابلة مناولته.

ما أحوجنا إلى همة حكيم ! ما أحوجنا إلى الاحتراف الذي تشهد له هذه الهمة العالية !

مرّ عمر بن الخطاب على جماعة فقال : (ما أنتم)، فقالوا : (متوكلون) قال: (كذبتم بل أنتم متواكلون، المتوكل هو رجل ألقى حبة في بطن الأرض وانتظر سنبلها).

قلت، أتكلم على الارتزاق والأخلاق، وبالارتزاق تهذب الأخلاق، الإنسان إذا كان بطالا اشتغل بما لا يعنيه، اشتغل بالقيل والقال، في الحديث : «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، وفي الحديث : «كره - أي الله - لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال».

البطال يبني على أقوال يسمعها القصور والقرى والمداشر، البطال يحسد، البطال يغتاب، البطال ينم، لو كان محترفاً ما شهد الزور، لو كان محترفا ما أخذ الرشوة، لو كان محترفا ما ضمن الجنة، لو كان محترفا ما تحلم المنامات، لو كان محترفا ما استنبط الخرافات.

كفى ! كفى ! كفى ما حاق بنا فقد ظننا من لا يعرفنا أن ديننا بني على ذلك، كفى ! كفى ! فقد جعلنا نأول ما شئنا لمن شئنا والمؤول ليس بقرآن أو حديث.

الاكتساب ! الاكتساب ! الارتزاق ! الارتزاق ! الاقتصاد ! الاقتصاد ! والاقتصاد بعد الكسب، قال الله تعالى : ﴿ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾، وقال عز من قائل : ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا﴾، وقال أيضا : ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾.

في البخاري أن أبا مذكور الأنصاري دبر غلاماً فدعاه - أي الغلام - وقال : (من يشتريه مني)، فقال رجل : (بخمسمائة درهم)، فقال : (هل من زائد)، فقال آخر : (بكذا) إلى أن باعه من نعيم بن عبد الله النخام، فأتى بالمال فقال عليه السلام: (ابدأ بنفسك، ثم بمن تعول، ثم خذ بالمال هكذا وهكذا)، فالبدء بالأقارب هو المتعين.

قال عليه السلام وهو في البخاري عن أبي مسعود الأنصاري «نفقة الرجل على أهله يحتسبها صدقة»، وقال عليه السلام لسعد ابن أبي وقاص لما سأله عن الوصية : «وانك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا اجرت عليها حتى ما تجعله في فم امرأتك».

قلت سابقاً إن الله سمى المبذر أخا الشيطان، كذلك المتكبر، فالمتكبر تلميذ إبليس لأنه أول من تكبر، قال الله : ﴿إلا إبليس أبى واستكبر﴾، فلا تتكبروا فتكونوا تلامذة الشيطان، وتواضعوا تقتدوا بسنن الأنبياء والمرسلين.

أُرْعِدَ رجل بين يدي نبينا عليه السلام، فقال له : «هون عليك لست بملك»، خير نبينا بين أن يكون نبياً عبداً أو نبياً ملكا، فاختار أن يكون نبياً عبداً.

إن عيسى عليه السلام ترك الطريق لخنزير، فقيل له فقال : (أردت أن أعود نفسي ذلك)، ورأى سيدنا الإمام مالك ولد يزيد بن المهلب يتبختر في مشيته، فقال له : (ارفع ازارك) فقال : (أو ما تعرفني)، قال : (أعرفك، أولك نطفة مدرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت فيما بينهما تحمل العذرة).

ألا وإن الكبر مفسد الأخلاق، مفوت للارتزاق، لينوا جانبكم في احترافكم وإلا لتكبر عليكم زبائنكم لأن الكبر يقابل بالكبر عادة.

(أنا أمير وأنت أمير ومن يسوق الحمير) تراحموا ! تراحموا ! قال نبينا عليه السلام : «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» وقال : «إنما يرحم الله من عباده الرحماء».

إرحموا المعسر، فقد جاء في الصحيح أن رجلاً كان ينظر المعسر ويتجاوز على الموسر فلما مات غفر له، ارحموا المسكين وذوي القربى واليتامى، ارحموا الهائم، فقد قال عليه السلام : «في كل كبد رطبة صدقة»، وقال : «دخلت امرأة النار في هرة حبستها، فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض».

توادوا، تعاطفوا، تحابوا، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، وقال عليه السلام : «لا تحاسدوا ولا تدابرواولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا»، أبناء المستقبل وقروا الكبير وارحموا الصغير.

أبناء المدارس، لا تزدروا بالوالدين فإنهما سبب في الإيجاد سبب في الإمداد، أنفقوا علينا، عانوا أمراضنا، عانوا تعليمنا، حافظوا على دينكم حافظوا على قوميتكم.

كثير من الناس يطلب العلم الدنيوي فيرجع بلا دين، فلا ما طلبوا وجدواولا ما أخذوا ردوا، جنوا على أنفسهم، جنوا على أهل العلم، جنوا على الهيئة الاجتماعية، جنايتهم على أنفسهم من الشر الذي ارتكبوه، على أهل العلم المحسنين له من كون أهاليهم يكذبوننا في نشر فضله ويقولون هؤلاء أبناؤنا صاروا إلى ما ترون.

جنوا على الهيئة الاجتماعية وعلى الحكومة التي قامت بنشر العلم حتى ظن قاصر الرأي أن سوء الأخلاق يتعلم بالمدارس وحاشى الله.

جملوا أنفسكم، جملوا مدارسكم، حتى لا ينسب لها السوء، يا أبناء المدارس: اتركوا المراء واتركوا الجدال، فقد قال الشاعر :

فإياك إياك المراء فإنه ... إلى الشر دعاء وللشر جالب

وقال آخر :

وإذا جلست إلى الرجال واشرقت ... في جو باطنك العلوم الشرد

فاحذر مناظرة الجهول فربما ... تغتاظ أنت ويستفيد ويجحد

أما المذاكرة بالمناوبة لا بالمناهبة فلابأس بها، قال الشاعر :

ولله قوم كلما جئت زائرا ... رأيت قلوباً كلها ملئت حلما

إذا اجتمعوا جاءوا بكل فضيلة ... ويزداد بعض القوم من بعضهم علما

أولئك كالمشموم كل له شذا ... ومجموعة أزكى أريجا إذا شما

تعاطوا كؤوس العلم في روضة التقى ... فكلهم من ذلك الري لا يظما

الحلم ! الحلم ! قال الله تعالي : ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾.

في الصحيح أن أعرابيا جبذ رداء النبي عليه السلام حتى أثر في عنقه، وقال له : «احمل لي من مال الله الذي عندك فإنك لا تحمل لي من مالك ولا مال أبيك»، فقال عليه السلام : «المال مال الله وأنا عبد الله ولكن إيقاد منك ؟»، قال لا، قال عليه السلام : ولم ؟، قال : «لأنك لا تجزي السيئة بالسيئة، ولكنك تعفو وتصفح»، فأمر أن يحمل له على بعير شعيراً وعلى بعير تمرا.

نعم لا يحلم على الجهال، قال النابغة بين يديه ﷺ :

ولا خير في حلم إذا لم تكن له ... بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

الوقار ! الوقار ! الثبات ! الثبات ! السكينة ! السكينة ! فقد كنت والله أتألم مما ينسبه لنا المصريون من عدم ثباتنا، فأصبحت لا أتألم اليوم وذلك أن رجلا مغربيا جاء إلى مصر فجعل مصري يثني عليه بأن المغاربة أحسن الناس وأعظمهم إيمانا وكذا وكذا إلا واحدة، فَبَدَل أن يقول المغربي بوقار وسكينة الكمال لله ومن ذا الذي ما ساء قط وكفى المرء نبلاً أن تعد معائبه، صاح حتى أزعجه قائلا له : وما هي ؟ فقال له المصري هذه الصيحة المزعجة الناشئة عن عدم الوقار.

فنتج أننا معشر المغاربة نحتاج إلى وقار، انزلوا الناس منازلهم، فقد جاء في الحديث أن عائشة رضوان الله عليها قالت : (أمرنا أن ننزل الناس منازلهم).

وقف أعرابي بسيدنا علي رضي الله عنه فقال : (إني رفعت إلى الله حاجة قبل أن أرفعها إليك، فإن قضيتها حمدت الله وشكرتك وإلا حمدت الله وعذرتك)، ففهم أنه استحيا فقال : (خطها في الأرض)، فخط : (إني فقير)، فأمر له بحلة فلبسها، وأنشد يقول :

كسوتني حلة تبلى محاسنها ... فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
إن الثناء ليحيي ذكر صاحبه ... كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في عرف بدأت به ... فكل عبد سيجزى بالذي فعلا

فأمر له بخمسين ديناراً، وقال : (الكسوة لفقرك وخمسون دينارا لأدبك، سمعت النبي ﷺ يقول : انزلوا الناس منازلهم).

الحياء ! الحياء ! وقال عليه السلام : «الحياء من الإيمان»، مَرَّ علي رجل من الأنصار وهو يَعِظُ أخاه في الحياء، فقال : (دعه فإن الحياء لا يأتي إلا بخير) ولكنه الحياء الشرعي وليس منه الحياء في العلم، قالت أم سليم : (إن الله لا يستحيي من الحق فهل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت قال «نعم إذا رأت الماء») فلم يمنعها الحياء من السؤال عن دينها، وقالت عائشة رضي الله عنها : (نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء من التفقه في الدين) وقال مجاهد بن جبير : (إثنان لا يتعلمان : مستكبر ومستحيي) فإن حصلت الفائدة مع الحياء فلابأس، فقد قال سيدنا علي : (كنت رجلا مذاءا فاستحييت أن أسأل رسول الله ﷺ لمكان ابنته مني) فأمرت المقداد فسأله فقال : «فيه الوضوء».

أولادنا ! أبناء المدارس : أحُثكم على طلب العلم، على المذاكرة فيه، في خلواتكم، في جلواتكم في كسلكم، في نشاطكم، وأحث الكل على الانفاق والاشتغال بما يعني، ومحبة مولانا السلطان والدعاء له بكل خير لأنه بمنزلة القلب من الجسد فإذا صلح صلحت الرعية، فاللهم انصره وأيده ووفقه لرفع معالم العلم، ونثني على من كان سبباً بجمعنا هاهنا وهو مدير المدرسة وسائر أعوانه والمقام يحتاج إلى بسط ولكن الزمان لا يسعه وبالله التوفيق.

في 22 جمادى الثانية عام 1339

5) إحدى خطب الشيخ أبي شعيب الدكالي في الحرم المكي[4] :

الحمد لله الآمر بالعدل والإحسان الذي حكم وعدل المكرم لنوع الإحسان الذي ولى وعزل.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد عظيم الشأن الذي قال وفعل، وعلى آله وأصحابه ذوي الحجر والعرفان وعلى كل من للعدل نصر وللجور خذل.

أما بعد : فيا معشر المسلمين قال مولانا جل جلاله : ﴿اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾، واشكروا الله

(4) هذه الخطبة من إملاء الشيخ على تلميذه الأستاذ أحمد الشبيهي رحم الله الجميع بمناسبة عزل وولاية يحض فيها كثيراً على الاحتراف، وعدم التفرقة والاعتساف ومجانبة الإخلاد والركون إلى الدكة والسكوت.